

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة وأنه يبعث من كل أمة شهيدا وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى : { ثم لا يؤذن للذين كفروا } أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : { هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون } فلهذا قال : { ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا } أي الذين أشركوا { العذاب فلا يخفف عنهم } أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة { ولا هم ينظرون } أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلهها آخر وبكذا وبكذا وتذكر أصنافا من الناس كما جاء في الحديث ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال الله تعالى : { إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا * وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا } وقال تعالى : { ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا } وقال تعالى : { لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتهم بغثة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون } .

ثم أخبر تعالى عن تربي آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال : { وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم } أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا { قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون } أي قالت لهم الآلهة : كذبتما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى : { ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين } وقال تعالى : { واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا } وقال الخليل عليه السلام { ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض } الآية وقال تعالى : { وقيل ادعوا شركاءكم } الآية والآيات في هذا كثيرة .

وقوله : { وألقوا إلى الله يومئذ السلم } قال قتادة وعكرمة : ذلوا واستسلموا يومئذ أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع وكقوله تعالى : { أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا } أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقال : { ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا } الآية وقال : { وعنت الوجوه للحي القيوم } أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت وقوله { وألقوا إلى الله يومئذ السلم وصل عنهم ما كانوا يفترون } أي ذهب

واضحل ما كانوا يعبدونه افتراء على ﷻ فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير .

ثم قال تعالى : { الذين كفروا وصدوا عن سبيل ﷻ زدناهم عذابا } الآية أي عذابا على كفرهم وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى : { وهم ينهون عنه وينأون عنه } أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضا { وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون } وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم كما قال تعالى : { قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون } وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سريح بن يونس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد ﷻ بن مرة عن مسروق عن عبد ﷻ في قول ﷻ : { زدناهم عذابا فوق العذاب } قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال وحدثنا شريح بن يونس حدثنا إبراهيم بن سليمان حدثنا الأعمش عن الحسن عن ابن عباس في الآية أنه قال : { زدناهم عذابا فوق العذاب } قال : هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وبعضها في النهار